المرجان

المراد بالمرجان هذه المادّة الحمرآء التي يتخذ منها الخرز وغيره [1] وهو من عجائب الخلق يتولد في البحر على شكل نباتٍ ذي ساقٍ وفروع ولكنهُ اذا كُشف عن جوهرهِ كان شبيهاً بجوهر الحجر . ولذلك اشكل امرهُ على متقدمي العلمآء فمنهم من عدّهُ ضرباً من المعدن وهو ما يستفاد من صنيع ارسطو فيما نقل عنهُ القزويني فانهُ ذكرهُ في جملة الحجارة وسماهُ بحجر المرجان . ومنهم من عدهُ نوعاً من النبات مثل تُورنْفُور ومَرْسِجْلي وغيرهما من علمآء القرن السابع عشر لانهم رأوهُ ينمو ويتفرع كالنبات . لكن الذي ثبت اخيراً انهُ صنع حيوانٍ صغيرٍ من الحيوانات القشرية وهو ما حققهُ پِيسُونّيل في جزائر الانتيل سنة ١٧٥٦ وعليهِ جمهور العلمآء المعاصرين

وقد ذكروا من امر هذا الحيوان انهُ يمتصّ الموادّ الكلسية المنحلة في مياه البحر ثم يفرزها فتكون مسكناً لهُ . وهو يعيش مجتمعاً في مواضع من حضيض البحر ويبني مساكنهُ متلاحمة على شكلٍ مستدير فيتألف منها اولاً قاعدةٌ متسعة لاصقة بالصخر ثم تستدقّ وترتفع شيئاً فشيئاً وينشأ لها

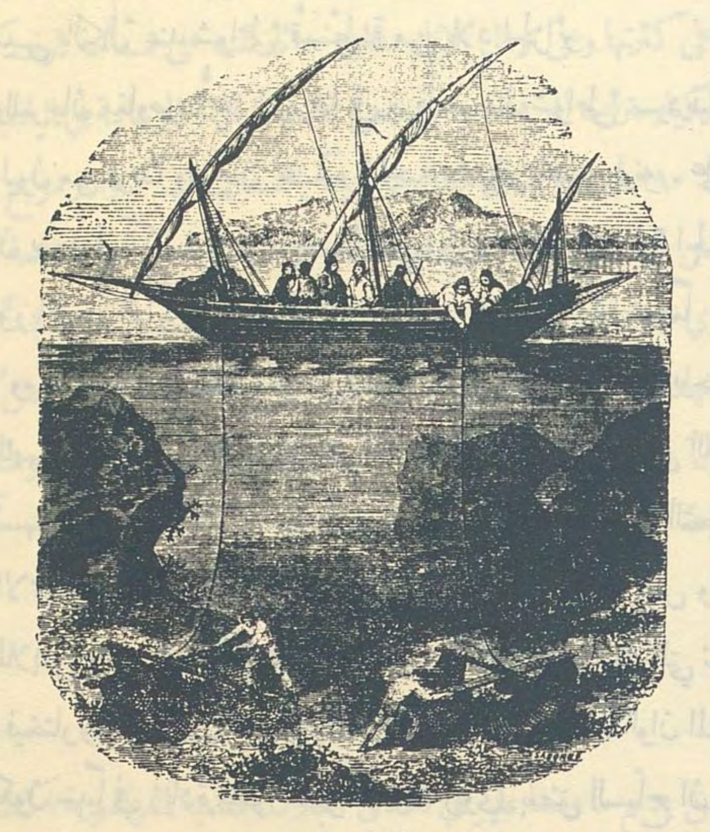
(١) المشهور عند اللغويين ان المرجان صغار اللؤلؤ وبهِ فسروا قولهُ في سورة الرحمن يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . قال في تاج العروس وقال بعضهم المرجان البُسَّذ وهو جوهرٌ احمر وفي تهذيب الاسمآء واللغات * المرجان * فسرهُ الواحدي بعظام اللؤلؤ وابو الهيثم بصغارها وآخرون بخرزٍ احمر وهو قول ابن مسعود وهو المشهور في عرف الناس . اه . وهو ماجرى عليهِ الزمخشري والخفاجي والقزويني وابن البيطار وغيرهم من ائمة اللغة وعلمآء الطبائع

فروعٌ اشبه بفروع الشجر ويبلغ طولها من ٥٠ الى ٦٠ سنتيمتراً في غلظ ٣ او ٤ سنتيمترات . ومتى اقتُلعت شجرتهُ من البحر وُجدت مكسوّةً بقشرة غشآئية رخوة غبراء اللون اذا جُففت كانت طباشيرية القوام سهلة التفتت . ويُرى على ظاهر هذه القشرة اشباه براعم أو أُبَن جوفاء هي التي يكون فيها الحيوان المذكور وهو يعيش في باطن هذه البراعم على حد ما يعيش الحَلَزُون في الصدَف ولا يبدو منها الافمهُ وهو بشكل انبوبٍ دقيق يتفرع منهُ ثماني زوائد خرطومية بيضاء هرَمية الشكل تظهر تحت المجهر مهدّبة الاطراف وهي التي تراها على الفروع في الرسم امامك . وهذه الزوائد تزيد المرجان قرباً من منظر النبات فيظهر للرآئي اشبه بشجرةٍ صغيرة ذات فروع وازهار ولكنها عارية من الورق

والقشرة المذكورة جوفاء في الاصل لكن يتخلل بناءها اوعيةٌ دقيقة تفضي الى سطحها الباطن تنفذ منها الفضلات الكلسية التي يفرزها الحيوان الى جوف القشرة فترسب شيئاً فشيئاً وتتصلب على توالي الايام الى ان يتألف منها محورٌ صلب يستبطن الساق والفروع هو المرجان . واما اللون الاحمر الناصع الذي تتلون بهِ فالظاهر انهُ ناشئٌ عن وجود شيء من اكاسيد الحديد مخالطٍ للمادّة المفرزة وهو يختلف تبعاً لمقدار الاكسيد المذكور فيها فيتدرج من حمرة الدم الى البياض الخالص

اما كيفية صيد المرجان فيتّخذ صليبٌ كبير من الخشب متساوي الاعضاد ويُشدّ في طرف كل عَضُدٍ شبكة متينة على شكل كيس ويركب

ثمانية رجال من الغواصين زورقاً ويبعدون عن الشاطئ حتى يصيروا فوق منابت المرجان فيربطون في وسط الصليب حجراً ثقيلاً ويرسلونهُ بحبل متين فيغوص الى درك البحر وينزل احد الغواصين معهُ فيأخذ باعضاد الصليب ويدفعها الواحدة بعد الاخرى الى جهاتٍ مختلفة حتى ينشب المرجان



في الشباك فاذا مضى على ذلك نحو نصف دقيقة يجذب الرجال الباقون في الزورق الحبل بشدةٍ ويرفعون الصليب والرجل الى الزورق وما خرج لهم يحملونهُ الى مدينة ليڤورنا من ايطاليا فيباع بعضهُ بحالهِ وينُحَت البعض الآخر في معامل مخصوصة . وفي هذه المدينة اربعة معامل كبيرة خلا المعامل

الصغرى في كل واحدٍ منها من ٢٥٠ الى ٣٠٠ عاملة فيرتزق من هذه الحرفة ما لا يقل عن الف امرأة . والظاهر ان هذه الطريقة في صيدهِ قديمة جدًّا فقد وصفها ياقوت بما يقرب مما ذكرهنا وذلك في كلامهِ على مَرْسَى الخرَز بافريقيا وهو مغاصٌ قديم لهذا النوع من الجوهر ولعلهُ هو الذي يسميهِ الفرنسيس بالكالّ عند شواطئ قُسَنْطِينة من بلاد الجزائر

وللمرجان مغاوص أُخر اشهرها في مرفأ مسّينا وشواطئ سردينيا وفي خوْر ليون من فرنسا ومرجان هذه الناحية مشهور بحسن لونهِ . على ان المرجان يوجد في اكثر شواطئ البحر الرومي قيل وهو في الشواطئ الجنوبية من اوربا انضر الوانًا وفي الشواطئ الشمالية من افريقيا اكبر حجمًا

ومعظم تجارة المرجان مع اهل الهند ومن يجاورهم لانهُ لا يوجد في شواطئهم وهم يغالون بهِ ويؤثرونهُ على انخر ما يخرج في نواحيهم من اللآلئ وبعكسهم اهل اوربا فانهم يفضلون عليهِ اصغر اللآلئ . ويكثر التحلي بهِ عند الامم السود والسمر فان الاغنياء منهم يكثرون من الالماس واللؤلؤ على الملابس والعصائب ونحوها واما الاساور والقلائد من الحلى التي تباشر الجلد فيختارون ان تكون من المرجان لانهُ ليس من ذوات الالوان المشرقة فلا تكون سببًا في زيادة ظهور السواد . وقد روى بعض السيّاح ان احد امرآء مدغشكر كانت عندهُ جاريةٌ فارهة من الزنج بذل لهُ فيها احد تجار الرقيق مئتي قرش فابى واعطاها لاحد الضباط الفرنسيس بعقدٍ من المرجان لا يسوى اكثر من نصف هذا الثمن

واعجب ما في هذا الحيوان الصغير انك اذا تفقدت جزُر البحار وجدت

جانباً كبيراً منها من صنعهِ . وهو انواعٌ كثيرة تُعَدّ بالمئات يُطلَق عليها كلها حيوانُ المرجان وان كان تعريفهُ لا يصدق الا على انواعٍ قليلة منها لا تتجاوز فيما ذكروا ستة انواع . وكلها عاملة تتناول على الدوام الموادّ الكلسية والطباشيرية المنحلَّة في البحار وتحولها الى مواد غير منحلَّة ثم تفرزها فيجتمع عنها على كثرتها وعلى توالي الايام مقادير هائلة تمتد على مساحة الوف كثيرة من الكيلومترات المربعة . وقد احصى بعضهم الجزائر المرجانية في الپاسيفيك فبلغت ٢٩٠ جزيرة تقدَّر مساحتها جميعاً بخمسين الف كيلومتر مربع وهي نحو ثُمن الاراضي القائمة فوق هذا البحر او ما يقرب من ثمن مساحة القطر المصري . واما الجزائر الصغرى التي اصلها من المرجان فهي كثيرةٌ جدًّا وقد عُدَّ منها في الارخبيل المسمى بالملديف اثنا عشر الف جزيرة بعضٌ منها مأهولٌ بالسكان وسنعود الى ذكر جزائر المرجان في غير هذا الموضع ان شاء الله

الوان الحرير الطبيعية
وكيفية تلوينهِ

من بديع ما وقفنا عليهِ في احدى المجلات العلمية الفرنسوية اكتشافٌ للمسيو لڤرآ والمسيو كُنْت وهما من المشتغلين بتربية دود الحرير ومعالجتهِ بالطرق العلمية فرأينا ان ننقل ذلك الاكتشاف الى قرآء الضيآء لما فيهِ من الفائدة والغرابة قالت

لا يخفى ان الحرير عند ما يخرج من جوف الدود يكون اما اصفر

او اخضر او لا لون لهُ والمعروف الى اليوم ان هذا الاختلاف مسببٌ عن اختلاف اصناف الدود بحيث ان كل صنفٍ منهُ مخصوصٌ بلون . غير ان هذا ليس بالتعليل الذي يُظهر سبب هذا الاختلاف ولكن لا بد هناك من سبب آخر في الحرير نفسهِ بهِ يختلف لون بعضهِ عن بعض وهذا ما عُني بالكشف عنهُ العالمان المشار اليهما في صدر هذه المقالة

وقد تبين لهما بعد عدة اختبارات ان الوان الحرير تستفاد من الغذاء الذي يربى عليهِ الدود فتكون المادّة الملوّنة اولا في القناة المِعوية ثم تمرّ منها الى الدم ومن هناك تنتقل الى المادة الحريرية . وعليهِ فمن الممكن ان يُتوصل الى تلوين الحرير بكل لونٍ يراد تلويناً طبيعياً

وبعد ما ثبت لهما ذلك اخذا يمتحنان المواد التي يمكن استخدامها لهذا الغرض فكان في جملة ما امتحناهُ مادّتان ملوّنتان احداهما للاحمر وهي التُّوْلُوِيلاَّن والاخرى للازرق وهي المَتيلاَّن . فقسما الدود الى فئتين ثم عمدا الى ورق صنفٍ من الحنّاء فطلياهُ بمحلول التولويلان ووضعاهُ امام احدى الفئتين فلم تمتنع من اكلهِ وبعد ان تناولت منهُ جانباً ظهر على جسمها احمرارٌ مُشبَع مما دلّ على وجود المادّة المذكورة دائرةً في دمها . ثم استعملا ازرق المتيلان كذلك ووضعا الورق المطليّ بهِ امام الفئة الثانية فلم تلبث بعد اكلهِ ان ظهر عليها اللون الازرق

وبعد ذلك امتحنا المسئلة من وجهٍ آخر فطليا الورق بمحلول الحامض البِكريك ووضعاهُ امام فئة اخرى من الدود وبعد اكلهِ لم يبدُ على ظاهرها شيء من الالوان . واخيراً عند ما اتمت كل فئةٍ منها صنع حريرها

كان نسيج الاولى احمر ونسيج الثانية ازرق ونسيج الثالثة لا لون لهُ

ثم اعادا هذا الامتحان على فئتين اخريين من الدود احداهما من الصنف الذي يصنع الحرير الاصفر والاخرى من الذي يصنع الحرير الابيض فعالجاهما بالمادة الملوّنة بالحمرة فخرج حرير الاولى نارنجياً اي ممزوجاً من الاحمر والاصفر وحرير الاخرى ورديًّا. وفيما قررا ان اللون يكون اشد اشباعاً كلما طالت مدة اعطآء المادة الملونة وعلى هذا فيمكن ان يدرَّج كل واحدٍ من الالوان درجاتٍ شتى تبعاً لطول تلك المدة وقصرها

ومن هذه الامتحانات كلها توصلا الى معرفة السبب في تلوُّن الحرير عادةً بالصفرة او الخضرة ولتحقيق ذلك اخذا شيئاً من الحرير الملوَّن بهذين اللونين وبذرائع كيماوية انتزعا منهُ المادة الملونة فوجدا ان المادة الخضرآء هي نفس المادة المسماة بالكلوروفيل التي هي سبب الخضرة في النبات والمادة الصفرآء هي نفس المادة الدائرة في ورق التوت الذي يغتذي بهِ الدود عادةً . قال كاتب المقالة لكن يبقى هنا ان يقال اذا كان الامر على ما ذكر فكيف يتناول بعض الدود من الورق اللون الاخضر وبعضهُ اللون الاصفر ويبقى بعضهُ بلا لون . والظاهر ان السبب في ذلك طبيعة كل واحدٍ من اصناف الدود المذكورة وما فيهِ من القبول لامتصاص بعض المواد دون بعض تبعاً لسُلالتهِ وللبيئة التي نُقل منها في اصلهِ . على ان هذا قد لا يستغني تحقيقهُ عن امتحاناتٍ أُخرها آخذان فيها لكن كل ما ذُكر الى هنا لا ريب فيهِ . انتهى تحصيلاً

مسمّيّة الجدران

المراد بالمسمّية كون الجسم ذا مسامّ اي منافذ دقيقة ومعلومٌ ان المسمّية صفةٌ عامّة في الاجسام الا انها تكون في بعضها اظهر من بعض كما في الاسفنج والخشب وبعض الحجارة والانسجة العضوية وغيرها. وهي على كل حال ليست ذات طبيعةٍ واحدة فان مسامّ الاسفنج وما اشبههُ ليست الا فُرَجاً تبقى بين الالياف التي يتركب منها الجسم وبخلافها مسامّ الحديد ونحوهِ من المعادن فانها فُسَحٌ طبيعية تتخلل دقائقهُ وهي ضروريةٌ في بنآئهِ الا انها تختلف سعةً وضيقاً تبعاً لتركُّب الدقائق بعضها مع بعض مما ليس هنا محلّ الافاضة فيهِ

ثم لا يخفى ان الهوآء كسائر السائلات يطلب الاتّزان لتوازن الجذب المركزيّ على جميع اجزآئهِ بالسوآء فاذا خفّ جانبٌ منهُ انصرف اليهِ شيءٌ مما يجاورهُ حتى تتعادل كثافتهُ وهذا هو السبب في حركة الرياح على ما هو مشهور. وعلى ذلك فاذا وُجد بين الهوآءين فاصل فان كان لا منفذ فيهِ البتة لبث كلٌّ منهما على كثافتهِ والا حصل بينهما تداخل بقدر ما يمكن افضآء احدهما الى الآخر. وهذا كما اذا وُضع اناءان احدهما ضمن الآخر وجُعِل في احدهما لبن وفي الآخر مآء فاذا كان كلاهما من الزجاج مثلاً لم يختلط احد السائلين بالآخر وان كان الداخل من خشب او من خزفٍ غير مدهون لم يلبث اللبن ان يرشح شيءٌ منهُ الى المآء ويدخلهُ من المآء بقدر ما نقص منهُ الى ان يتعادلا ولو بعد حين وقد سبق لنا شيءٌ من مثل هذا البحث من عهدٍ قريب

اذا تقرر ذلك امكن الحكم منهُ بان جدران المنازل مهما كانت ثخينةً او مُصَمتة لا تمنع دخول الهوآء من الخارج ولا خروجهُ من الداخل لانها لا تخلو من المسميّة ولاسيما اذا كانت مبنيةمن موادّ متخلخلة بل قد تحقق بعضهم انهُ فضلاً عن دخول الهوآء من خلل الجدران قد يدخل معهُ شيءٌ من الغبار وما يتخللهُ من الجراثيم الحية . واكثر ما يكون ذلك عند اختلاف درجة الحرارة بين داخل البناء وخارجهِ فانهُ كلما ازدادت الحرارة في الداخل تمدد الهوآء وطلب الخروج فاذا لم يجد منفذاً من باب او نحوهِ خرج من مسامّ الجدران ثم يدخل غيرهُ من الخارج لتعديل كثافتهِ على ما سبق بيانهُ

وقد بحث احد علماء الطبيعيات من الالمان عن مقدار الهوآء الذي ينفذ جدران غُرفةٍ مغلقة فوجد انهُ في الغُرَف ذات الجدران القليلة المَسميّة يدخل منهُ في الساعة ما يعدل ٨ في المئة من موسوع الغرفة وذلك مع فرق درجة واحدة بين حرارة داخل الغرفة وخارجها وعليهِ فاذا كان الفرق بين الحرارتين ١٣° يتجدد كل هوآء الغرفة في ساعة

وامتحن ذلك غيرهُ بان عمد الى غرفةٍ خالية فقدَّر في مدة ساعةٍ فساعة كمية ما فيها من الحامض الكربونيك لان تناقص كمية الحامض المذكور اظهر دلالةً على مقدار التجدد الذي يحدث في هوآء الغرفة . فتبين لهُ ان غرفةً مساحة باطنها ٦٠ متراً مكعباً وجدرانها مغشاة بالورق يكون مقدار التجدد في هوآئها ٠٢٥، في الساعة مع فرق درجة واحدة بين حرارتها وحرارة الهوآء الخارجي . واذا كانت جدرانها مطليةً بالزيت يهبط هذا المقدار الى ٠١٧، واذا كانت مبيضةً بالكلس يرتفع الى ٠٥٣، ومع ان هذه

الارقام اقل كثيراً مما سبق لان معظمها لا يكاد يتعدى ٥ في المئة فاذا كان الفرق بين حرارة الداخل وحرارة الخارج ١٠ درجات لزم ان كل هوآء الغرفة يتجدد في ساعتين والله اعلم

مواعيد قطع الخشب

ظهر من التجارب المتواترة أن لزمن قطع الخشب من الارض تأثيراً في متانتهِ ومدَّتهِ وسلامتهِ من العوارض وذلك بين ان يُقطع في استقبال زمن الشتآء او بعده اي في اوائل شهر دسمبر او في اواخر شهر مارس . ومن الاختبارات في ذلك أنهم اختاروا اربع شجرات من الصنوبر ذات عمرٍ واحد وقد نبتت في احوال واحدة وفي ارضٍ واحدة فقُطعت احداها في آخر شهر دسمبر والثانية في آخر يناير والثالثة في آخر فبراير والرابعة في آخر مارس ثم نُحتت ورُبّعت تربيعاً واحداً وجُفّفت في احوالٍ واحدة . ولما تمَّ جفافها وُضعت بين جدارين يمسكانها من اطرافها على بعدٍ متساوٍ ثم حُمّلت كل واحدةٍ منها المقدار الذي تحتملهُ من الوسط فكانت نسبة محمول بعضها الى بعض على ترتيبها المذكور كنسبة ١٠٠ الى ٨٨ ثم ٨٠ ثم ٦٢ . فظهر ان اقواها احتمالاً التي قُطعت في دسمبر ثم تضعف تدريجاً الى التي قُطعت في مارس

ثم عمدوا الى اختبار صلابة الخشب وصبرهِ على العوارض الطبيعية فقطعوا اوتاداً متماثلة من شجراتٍ قد قُطع بعضها في دسمبر و بعضها فيما يليهِ الى مارس وغرزوها في ارضٍ واحدة ذات احوالٍ واحدة و بعد ذلك

اخذوا يتفقدون متانتها حيناً بعد آخر فوجدوا الاولى لا تزال على قوّتها بعد ان أتى عليها ١٦ سنة والبواقي قد انخرت وتناولها البلى في آجال قريبة فانكسرت عند اقل تحامل بعد ثلاث او اربع سنين

ثم عدلوا الى وجهٍ آخر من الاختبار فاختاروا اربع شجراتٍ من السنديان من اقرب ما يكون شبهاً ووضعوها في احوال متشابهة بعد ان قطعوا بعضها في آخر دسمبر وبعضها في اواخر الاشهر التالية الى مارس ثم قطعوا من كل واحدةٍ منها قرصاً وجعلوا الاقراص كلها ذات ثخانةٍ واحدة وقطرٍ واحد وطوّقوا كل واحد منها بإطارٍ من حديد يرتفع الى حدٍّ معيَّن ثم ملأُوا داخل الاطواق مآء الى اعلاها . وبعد ان تركوها كذلك مدةً وجدوا ان القرص المأخوذ من الشجرة المقطوعة في دسمبر لم يرشح منهُ شيء من المآء والبواقي سرب منها المآء في اوقاتٍ متفاوتة فالذي قُطعت شجرتهُ في يناير رشح بعد ثمانٍ واربعين ساعة والذي يليهِ رشح قبل تمام اليوم الثاني والاخير رشح بعد ساعتين

ومن امتحاناتهم في ذلك انهم قطعوا شجرتي سنديان متماثلتين احداهما في آخر دسمبر والاخرى في آخر يناير واتخذوا من كلٍّ منهما برميلاً يسع نحو مئتي لتر وملأوهما في وقتٍ واحد من خمرٍ واحدة وبعد سنة وجدوا ان الاول قد نقص منهُ اربعة اعشار اللِتر والآخر نقص منهُ ٧ ألتار وعُشران

فوضح من ذلك كلهِ ان افضل الخشب واصلبهُ وابقاهُ ما قُطع في اوائل الشتاء ثم يضعف كلما تأخر قطعهُ الى ما بعد الشتآء وبالتالي تبين ان الخشب المقطوع من اكتوبر الى ابريل ابقى من الخشب المقطوع من ابريل

الى اكتوبر وافضل في كثيرٍ من ضروب الاستعمال

قالوا والعلة في هذا الفرق ان الخشب المقطوع في فصل الشتآء يتضمن في خلاياهُ دقائق من النشاء. لا توجد في الخشب المقطوع في الصيف وهذا النشآء يصلّد الخشب اي يمنع نفوذ المآء لهُ بعض المنع ويؤخر اسراع البلى اليهِ. ولكي يُعرَف في اي فصل قُطع الخشب يُمَدّ على مقطعهِ قليلٌ من محلول اليود بشرط ان يكون قطعهُ من ذلك الموضع من عهدٍ قريب فان بقي على لونهِ الطبيعي ولكن تقوّى لونهُ باليود علم انهُ مما قطع في الصيف وان تلوّن بلون بنفسجي فهو مما قُطع في الشتآء. وسببهُ ان اليود يفعل على النشآء فعلاً منعكساً فيلونهُ بالبنفسجي ولذلك يتلون بهِ خشب الشتآء وبخلافهِ الخشب الصيفي فانهُ لا يتغير لونهُ لعدم وجود النشآء فيهِ والله اعلم

دير سمعان والاب لويس شيخو

لاحد ادبآء حمص

ذكر الاب لويس شيخو اليسوعي في كتابهِ مجاني الادب (الجزء الرابع ص ٣١٦) ان الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز توفي بدير سمعان. وقد دعاني حب الاستطلاع الى البحث عما يقولهُ حضرة الاب العلامة عن موقع هذا الدير وتاريخهِ. فتناولت المجلد الثاني من حواشي مجاني الادب وقلّبت صحائفهُ عليّ افوز بمأربي فاذا صاحبهُ المحقق يقول في صفحة ٦٨١ منهُ ما يأتي: « (دير سمعان) مرّ ذكرهُ في الجزء الاول من المجاني صفحة ١١٨ وصفحة ٦٢٨ من الحواشي ». ففتحت صفحة ٦٢٨ من الحواشي فلم اجد

فيها ذكراً لدير سمعان وعلمت ان حضرة الاب يُريد صفحة غيرها ولكنهُ غلط في الاشارة اليها فازداد الامر بهديهِ اشكالاً وابهاماً . . . . ثم تناولت الجزء الاول من المجاني وفتحت صفحة ١١٨ منهُ واذا فيها

« دير سمعان : دير بناحية دمشق في موضع نزهٍ محدقة بهِ البساتين والدور والقصور . وكان فيهِ حبيس مشهور منقطع عن الخلق جدًّا . وكان يخرج رأسهُ من كوّةٍ في كل سنة يوماً معلوماً فكل من وقع عليهِ بصرهُ من المرضى والزمنى عوفي . فسمع بهِ ابراهيم بن ادهم فذهب اليهِ حتى يشاهد ذلك . قال رأيت عند الدير خلقاً كثيراً من الواقفين حذآء تلك الكوّة يترقبون خروج رأس الحبيس . فلما كان ذلك اليوم اخرج رأسهُ ونظر اليهم يميناً وشمالاً فكل من وقع نظارهُ عليهِ قام سليماً معافى (للقزويني) »

انتهى . ولم أنهِ قراآءة هذه القصة حتى شعرت بشطط المؤلف عن الصواب وجهلهِ موقع دير سمعان الذي توفي فيه الخليفة وأحببتُ معرفة ما يقولهُ بشأن الحبيس الذي ذُكر ومن هو ففتحت الشرح واذا فيهِ صفحة ٧٤ ما يأتي :

« (وكان فيه حبيس مشهور) اننا نظن ان هذا الحبيس هو القديس سمعان العمودي نُسب الدير اليهِ . وُلد في سيسان قرية من نواحي سورية سنة ٣٦٠ ولشدة ارتياحهِ للتقشف والاماتة رقي الى عمود كان علوهُ ثلاثين ذراعاً عليهِ قضى نيف وثمانين سنة واقفاً فجرت على يدهِ المعجزات . . . وكانت وفاتهُ سنة ٤٦٠ م » . انتهى . وعندما قرأت هذا تحققت ان حضرة الاب يخبط في كلامهِ على غير هدى ويجمع بين المتناقضات شأنهُ في الابحاث التاريخية واليك البرهان على ذلك :

روى ثقات المؤرخين ان الخليفة عمر بن عبد العزيز توفي في دير سمعان

اما موقع هذا الدير فقد ذكر بعضهم انهُ بارض حمص (راجع العقد الفريد لابن عبد ربهِ (الجزء ٢ : ٢٦٤) وتاريخ الاسحاقي (ص ٥١) وتحفة الناظرين المطبوع بهامش الاسحاقي (ص ٧٤) والروض الفائق (ص ١٤٤) وصنّاجة الطرب (ص٤٤٩) . وقد روى ابو الفدآء عن القاضي جمال الدين بن واصل وعنهما نقل ابن الوردي ما جآء في تاريخهِ (طبعة مصر ١ : ١٨١) وهو قولهُ « الظاهر ان دير سمعان هو المعروف الآن بدير النقيرة من عمل معرة النعمان . (لاحظ ايضاً تاريخ سورية للعلامة المطران يوسف الدبس (مجلد ٥ : ٢١٩) والروضة الغنآء في تاريخ دمشق الفيحآء (ص ٣٣) . وهذا القول لا ينقض رأي القائلين انهُ كان بارض حمص بل يثبتهُ . والبرهان على ذلك آتي بهِ من كلام حضرة الاب فقد جآء في شرحهِ المجاني (ص١١٤) ما يأتي : « (المعرّة) هي معرّة النعمان نسبة الى النعمان بن بشير . . . وهي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من اعمال حمص » . فمن هذا الكلام نستنتج ان المعرة كانت من اعمال حمص ودير سمعان الذي توفي فيهِ الخليفة من اعمال المعرة فهو اذاً من اعمال حمص . وعليهِ فهذا الدير هو غير الدير الواقع بناحية دمشق الذي ذكرهُ القزويني . واما حضرة الاب المدقق فقد خلط بينهما ولا اظن ذلك منهُ الا سهواً سببّهُ اشتراكهما في الاسم لانهُ لا يُعقَل ان عالماً كبيراً مثلهُ يتوهم ان لا فرق بين حمص ودمشق وان ما كان بناحية دمشق يجوز ان تنسبهُ لارض حمص

واما قولهُ عن الحبيس انهُ هو القديس سمعان العمودي فغير صحيح . .

لانهُ جآء في كلام القزويني الذي ذكرهُ حضرة الاب في متن مجاني الادب (١ : ١١٨) ان ابراهيم بن ادهم ذهب الى هذا الحبيس وشاهدهُ . وابراهيم ابن ادهم هذا توفي سنة ٧٧٨ مسيحية كما يقول حضرة الاب (شرح المجاني ص ٦) واما القديس سمعان العمودي فقد قال انهُ توفي سنة ٤٦٠ (شرح المجاني ص ٧٤) . والفرق بين هذين الرجلين كما ترى برواية مؤرخنا الثقة ٣١٨ سنة (فقط لاغير. . .) فكيف يزعم انهما كانا متعاصرين وان احدهما شاهد الآخر ! . . . ان في هذا لعجباً وانهُ لمن آياتهِ الباهرة ومعجزاتهِ الساحرة . . .

ومما يدحض زعمهُ السابق ما نراهُ من الاختلاف بين ما رواهُ عن القديس انهُ قضى حياتهُ واقفاً على عمود علوهُ ثلاثون ذراعاً . وانهُ (كما جاء في مروج الاخيار ص ٢٠) كان يعظ كل يوم مرتين . وبين ما جاء في كلام القزويني عن الحبيس انهُ كان يخرج رأسهُ من كوة في كل سنة يوماً معلوماً فكيف هذا التناقض الصريح . . أوَ لا نستنتج منهُ ان حضرة الاب اخطأ في ظنهِ وجار عن جادة الحقيقة في زعمهِ

اما موقع دير سمعان الذي نسك فيهِ القديس سمعان العمودي فهو في المحل المعروف بجبل سمعان شمال غربي حلب كما اوضح ذلك المركيز دي ڤوكويه في كتابهِ في ابنية سورية الوسطى (صفحة ١٤١) والاب الرحالة بولس جوون اليسوعي في مقالتهِ المعنونة قلعة سمعان المطبوعة في المشرق (٢ : ٣٩٩) . ومن معرفة ذلك نستفيد انهُ يوجد ثلاثة اديار تدعى باسم « دير سمعان » الاول بجوار حلب وفيهِ نسك القديس سمعان العمودي .

والثاني قرب المعرّة بأرض حمص وفيهِ توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز . والثالث بناحية دمشق وهو الذي ذكرهُ القزويني . ولا نعلم كيف اشتبه الامر على حضرة الاب مع وفرة تدقيقهِ وسعة علمهِ فارتأى ان العمودي كان ناسكاً في الدير الذي بناحية دمشق وانهُ نُسب اليهِ بل كيف لم يفرق بين الاديار الثلاثة نخالها ديراً واحداً ؟ لا ريب ان ذلك من اكتشافاتهِ الجغرافية والتاريخية التي تشهد لهُ بدقة الفكر وطول الباع . . .

ثم ان حضرتهُ يقول ان القديس سمعان العمودي وُلد سنة ٣٦٠ ولكن سلفهُ الاب فروماج اليسوعي يقول في كتاب مروج الاخيار ص ٢٨ انهُ وُلد سنة ٣٩٢ فكيف نوفق بين القولين والفرق بينهما ٣٢ سنة . وكذلك قال ان القديس وقف على العمود ثمانين سنة ولكن اخاهُ الاب جوون يقول (المشرق ٢ : ٤٠٣) انهُ وقف ثلاثين سنة فقط والفرق بين روايتيهما ٥٠ سنة ايضاً فاي الروايتين اصح يا ترى

هذا قليلٌ من كثير من الاغلاط والمناقضات والاوهام الواردة في كلام حضرة الاب مما ينبئ بما عندهُ من المعارف السامية . فنكتفي الآن بما ذكرناهُ منها ولعلنا سنقرع هذا الباب مرةً اخرى ان شاء الله

مربعة ابن دُرَيد

بعث الينا حضرة الفاضل حبيب افندي الزيات بدمشق بالنسخة الآتية من مربعة ابن دُرَيد العالم اللغوي المشهور فاحببنا اثباتها على صفحات الضياء لندرتها بين ايدي المطالعين وقد ذيلناها بتفسير الغريب من الفاظها تقريباً لمفهومها . قال حفظهُ الله

كان ابن دريد كما ذكر المسعودي شاعرًا كثير الشعر يذهب فيهِ كل مذهب غير انهُ لم يشتهر من شعرهِ الا مقصورتهُ التي مدح بها ابني ميكال وعليها عدة شروح ضافية لخلق من العلمآءِ كابن خالوَيه والخطيب التبريزي والامام الصغاني وابن هشام اللخمي وكثيرين غيرهم يضيق المقام عن تعداد اسمآئهم . وقد وقفت لهُ في مجموعٍ عندي على هذه المربعة نظمها على حروف المعجم لكل حرفٍ اربعة ابيات تبتدئ وتنتهي بهِ بحيث بلغت عدتها ١١٦ بيتاً فرَّق حروفها على ابحرٍ مختلفة . وفي الخزانة الظاهرية في دمشق ضمن المجموع رقم ٥ من الادبيات المنظومة قصائد من نظم ابي الحسن علي بن محمد الاندلسي البرزي نسج فيها على منوال ابن دريد في مربعتهِ غير انهُ جعلها عشرةً عشرةً بدلاً من اربعة ولذلك تعرف بالقصائد المعشَّرة . واول من بلغ الغاية في هذا النوع من المنظوم الصفيّ الحلي في قصائدهِ الموسومة بالأرتقيات فانهُ لم يكتفِ فيها بالتزام كلّ من حروف الهجآء في الاوائل والاواخر كابن دريد بل نسق كل قصيدةٍ منها على عدد هذه الحروف ايضاً حتى اجتمع لهُ بذلك تسع وعشرون قصيدة كل واحدة في تسعة وعشرين بيتاً مفتتحة ومختتمة بحرفٍ واحد وقد مكث في نظمها تسعين يوماً كما حكى في مقدمة الكتاب

واما تاريخ كتابة المربعة المشار اليها فقد ذُكر في خاتمتها هكذا « تمت المربعة بحمد الله وعونهِ وعلقها بخط يدهِ احمد بن محمد بن عمر بن واجب وذلك في شهر جمادى الآخرة عام سبعة وخمسين وخمسمائة والحمد لله حق حمدهِ وصلى الله على محمدٍ عبدهِ وسلم » . وهذا متن المربعة كما رواها احمد بن محمد المذكور

حرف الالف

أبقيتَ لي سقماً يمازج عبرتي ... مَن ذا يلذُّ مع السقام بقآءَ
أشمتَّ بي الاعدآءَ حين هجرتني ... حاشاك مما يُشمِت الاعدآءَ
أبكيتني حتى ظننتُ بانني ... سيصير عمري ما حييتُ بكآءَ
أُخفي وأُعلِن باضطرارٍ إنني ... لا استطيع لما أُجِنُّ خفآءَ

حرف البآء

بقلبيَ لذعٌ من هواكِ مبرّحٌ نعم دام ذاك اللذع ما عشتُ للقلبِ
بكِ استحسنت نفسي الصبابة والصبَى وقد كنت قبل اليوم ازري على الصبِّ
بذلتُ لهُ الدمع الذي كنتُ صائناً لأدناهُ الا في الجليل من الخطبِ
بُليتُ ببعض الحب والبعض موعدي مجاورةً بعد المنية في التربِ

حرف التآء

تمنيتُ المنيَّةَ يومَ قالوا غدا بجموع شملكمُ شتيتُ (١)
تعيش صبابتي ويموت صبري ونفسي لا تعيش ولا تموتُ
تراءى لي الأسى فصدفتُ (٢) عنهُ فقال اليك انك لا تفوتُ
تكلم مآءُ عيني عن فؤادي وقلبي من سجيتّهِ السكوتُ

حرف الثآء

ثوى بين أثنآء الحشا منكِ لوعةٌ يجدُّ بنفسي شوقها وهو يعبثُ (٣)
ثكلتُ الهوى ان كنت اكرهُ قربَهُ على انهُ الدآء الذي لا يلبّثُ (٤)
ثنى قلبَهُ لما ثنت عنهُ طرفها على مضض احشآؤهُ منهُ تفرَثُ (٥)
ثقي بجفونٍ ان دعا مآءها الهوى بذكركِ يوماً اقبلت لا تمكّثُ (٦)

حرف الجيم

جريءٌ على قتل النفوس وانهُ ليَجزَع من لبس الحرير ويَهرَجُ (٧)
جرى خاطرٌ بالوهم يوماً بجبّهِ فظلّ لوهمي خدُّهُ يتضرّجُ

(١) مصدر بمعنى التشتيت (٢) اعرضت (٣) يلعب (٤) يمهل صاحبهُ (٥) تشق (٦) تتوقف (٧) من قولهم هرِج الرجل وغيرهُ اذا تتابع نفَسهُ من حر او ثقل

جمالٌ يغضُّ الطرفَ عنهُ جلالةٌ وفعلٌ من البين المشتّتِ اسمجُ
جلا وجهَهُ للَّيل في غسق الدجى فناب عن الإصباح والليل ادعجُ[١]

(ستأتي بقيتها)

اسئلة واجوبتها

الاسكندرية — نرى من الناس من يكتب إِذَنْ بالنون ومنهم من يكتبها بالالف فاي الوجهين اصحّ مستفيد

الجواب — تكتَب اواخر الكلم بحسب الوقف عليها وقد سُمع الوقف على اذن بالنون على لفظها وبالالف حملاً لها على المنوَّن المنصوب فمن وقف عليها بالنون كتبها بالنون والا فبالالف

القاهرة — قرأت في احدى الجرائد ان نسآء طنطا عقدنَ الخناصر على تشكيل جمعية خيرية الخ . فما معنى عقد الخناصر وما اصل هذه الاستعارة هنا ثم هل التشكيل بمعنى التأليف عربيٌّ فصيح يوسف الخوام

الجواب — اما عقد الخناصر فقدتقدم لنا الكلام عليهِ في لغة الجرائد وحاصلهُ انهُ يقال هذا امرٌ تُعقَدعليهِ الخناصر وفلانٌ تُثنَى بهِ الخناصر كنايةً عن تقدمهِ على امثالهِ او تفرُّدهِ في نوعهِ وليس في شيءٍ من معنى العزم على الامر كما يستعملهُ كثيرٌ من كتّابنا اليوم . واما تشكيل الجمعية بمعنى تأليفها فليس في شيء من العربيّ الفصيح وانما هو من لغة الدواوين ونظنهُ في الاصل من استعمال الاتراك

(١) شديد السواد

آثار ادبيّة

جزآء الخيانة ـ هو عنوان الرواية التي تراها في هذا الجزء من انشآء حضرة الكاتبة الفاضلة السيدة لبيبة هاشم التي طالما اطرفت قرّآء الضياء وغيرهِ من المجلات والجرائد بنفثات اقلامها وبنات افكارها مما تمنينا لو أن كل اديبةٍ في القطرين تقتدي فيهِ بآثارها فان المرأة المتمدنة انما تتزين بما توشّيهِ من مطارف الادب وتصوغهُ من قلائد البيان لا بما يُفرَغ عليها من حُلَل الديباج والوشي وتقلّدهُ من جواهر الياقوت والمرجان

والرواية المذكورة مبنيةٌ على حادثٍ قديم ذكرهُ بعض المؤرخين مثل المسعودي وابن الاثير وابن زيدون وغيرهم وهو لا يتجاوز بضعة اسطرذُكر فيها مجمل الخبر الذي يُفهم من مطالعة الرواية فعمدت الى هذا الخبر المُقتضَب والحديث الاجمالي فبسطت مُوجَزهُ ونشرت مطويّهُ وابرزت ما تركهُ قلم الرواة بما اوحت اليها قريحتها وشفَّ عنهُ لطف وجدانها وما أُودعتهُ مخيلّتها من قوة التصوُّر من غير ان تُدخِل على الحادث ما يبدّل شيئاً من حقيقتهِ او يحيلهُ عن صبغة عصرهِ سوى انها زخرفتهُ ببدائع الاستعارات ولطائف التخيلات مما جعل لهُ اقوى تأثير في القلوب

وقد اختلف المؤرخون في رواية هذه القصة واصحابها وتاريخ حدوثها فذكر المسعودي ان الساطرون صاحب الحَضْر المذكور في الرواية هو ابن استطرون من ملوك السريانيين . وروى ابن الاثير ومثلهُ ابن خلدون انهُ كان من الجرامقة وهم قومٌ كانوا بالموصل اصلهم من العجم . ثم ذكر ابن الاثير في الموضع نفسهِ انهُ من قضاعة وهم

قبيلةٌ من العرب . وكذلك اختلفوا في سابور الذي قتل الساطرون وفتح الحضر فقيل هو سابور الاول ابن اردشير بن بابك وقيل هو سابور الثاني الملقب بذي الأكتاف نقلهُ ابن خلدون عن ابن اسحق . وفي روايةٍ عن دغفل بن حنظلة الشيباني ان الساطرون كان من الغساسنة وهو عم هند بنت الريان المعروفة بالزبآء وانهُ كان متزوجاً بدختنوس بنت نرسي عمة سابور ذي الأكتاف . ثم وصل هذه القصة بقصةٍ أخرى فذكر ان الزبآء انما خدعت جذيمة الابرش وقتلتهُ في الخبر المشهور لانهُ كان مع سابور ذي الأكتاف حين قتل عمها الساطرون بعد فتحهِ للحضر . واغرب من ذلك كلهِ ما رواهُ ابن خلدون عن البيهقي في الكلام على الجرامقة قال ان الجزيرة اي ارض ما بين النهرين ملكها بعد مقتل سنحاريف اخوهُ ساطرون وهو الذي بنى مدينة الحضر في برية سنجار على نهر الترتار مع ان سنحاريف أو سنحاريب كان قبل الميلاد بسبع مئة سنة والساطرون الذي ذُكر ان سابور قتلهُ ان كان المراد بهِ سابور الاول فقد كان في القرن الثالث بعد الميلاد أو سابور الثاني ففي القرن الرابع فبين هذا العهد ومقتل سنحاريب ما يقرب من الف أو الف ومئة سنة . وبقي هناك اختلافاتٌ اخر منها ان ابنة الساطرون أو الضيزن كان اسمها النضيرة وهو المشهور وفي رواية دغفل بن حنظلة ان اسمها مليكة . ومنها ان مدة حصار سابور للحضر كانت سنتين وقيل اربع سنين وقيل شهرًا . ومنها ان ابنة الضيزن فتحت لسابور باب المدينة بعد ان اسكرت الحراس . وقيل انها دلتهُ على عورة المدينة فدخلها عنوةً وهي رواية ابن خلدون . وروى ابن الاثير انها ارسلت اليهِ عليك بحمامةٍ ورقاء مطوقة فاكتب على رجلها بدم جاريةٍ بكرٍ زرقآء ثم ارسلها فانها تقع على سور المدينة فيخرب وكان ذلك طلسم ذلك البلد ففعل وتداعت المدينة . ولعل هناك رواياتٍ اخر لبعض المؤرخين فان تاريخ العرب في الجاهلية من اسقم التواريخ واكثرها تخليطاً واشتمالاً على الخرافات والله اعلم بالصواب

فكاهات

جزآء الخيانة [1]

كانت بجبال تكريت بين دجلة والفرات مدينة لها يقال الحَضْر وكان فيها ملك من الجرامقة يقال لهُ الساطرون وتسميهِ العرب الضيزن وكان قد ملك الجزيرة وكثر جندهُ واصبح معهُ من قبائل قضاعة ما لا يحصى عددهُ وامتدّ ملكهُ حتى بلغ الشأم

واتفق مرةً ان الملك سابور ملك الفرس كان متغيباً في غزوة لهُ بنواحي خراسان فزين الطمع للضيزن ان يزحف على بلادهِ فركب في جيش كثيف ودخل بلادهُ فقتل وغنم واسر اختاً لسابور وفتح مدينة نهر شير وفتك باهلها ثم عاد ظافرًا مسرورًا بما اصاب من الغنائم

ولم يكن للضيزن من الاولاد سوى بنت بارعة الجمال تدعى النضيرة فكان يعزها اعزازًا شديدًا ويحرص عليها حرصهُ على روحهِ ويبذل كل ما في طوقهِ لراحتها ورفاهيتها . فشبت الفتاة داخل حجابها على السذاجة والدلال تشارك الطبيعة في بهجتها والطيور في تغريدها ولا تعرف من الدنيا سوى اتقان زينتها ووجوب الطاعة لابيها والامتثال لاوامرهِ

وكان فؤاد الملك يخفق شوقاً وحناناً كلما اقترب من مدينتهِ وتمثل قرب اجتماعهِ بفلذة كبدهِ وحشاشة نفسهِ التي لم يشغلهُ عن ذكراها نصر ولا مغنم ولما دنا من سور المدينة امر بان تقرع الطبول تبشيرًا بعودتهِ وللحال خرج الناس زرافات لملاقاتهِ وعلائم السرور بادية على وجوههم ولم تقع اعينهم على موكب الملك حتى انطلقت منهم اصوات الترحيب بقدومهِ والدعآء بدوام نصرتهِ

(١) رواية تاريخية عربية الاصل بقلم السيدة لبيبة هاشم

وسمعت الفتاة اصوات الطبول وهتاف الجماهير وكان القصر الذي جعلهُ الملك لسكناها مع باقي نسآئهِ خارج المدينة قريباً من باب السور الكبير فعلمت برجوع والدها فاستفزَّها الفرح لمشاهدتهِ واسرعت الى بعض شرفات القصر فرأتهُ قادماً في طليعة جيشهِ كأَنهُ القمر في سمآئهِ فطفح قلبها سرورًا و بدرت من عينيها دمعتان كالدر النضيد . ثم انحدرت لملاقاتهِ عند باب القصر وتبعتها نسآء البلاط وسائر الخادمات وقدعلت بينهنّ اصوات الزجل وهتاف السرور ولم يكن الا القليل حتى اقبل والدها فألقت بنفسها على صدرهِ وتعانقا طويلاً

* * *

ومضى على ذلك ايام كان فيها ملك الحضر وقومهُ متمتعين بلذة النصر مترنحين بخمرة الفوز لا يحسب احد منهم ما للدهر من الغدرات وما لغدرهِ من الحسرات

ولما كان بعض الايام هب الناس من رقادهم مذعورين اذ سمعوا ضوضآء الجنود وصهيل الخيول وقعقعة السلاح حول سور مدينتهم فهرعوا الى الاسواق يتسآءلون عن الخبر وقد عمّ الخوف في المدينة واستطار الرعب في القلوب . وذلك ان سابور بعد ان عاد من خراسان وأخبر بما كان من الضيزن هاج وماج و بلغ الحنق منهُ مبلغهُ فجمع جيشهُ وشخص اليهِ حتى اناخ على حصنهِ

وكان من عادة النضيرة ان تحضر اليها وصائفها كل صباح فيصلحنَ من شأنها ويعاونّها على اتمام زينتها ولكنها في ذلك اليوم لم ترَ احدًا منهنَّ فنادتهنَّ واحدةً بعد اخرى فلم يكن من يجيب واخيرًا اطلّت من خدرها فرأت نسآء البلاط جميعاً يتراكضنَ مذعورات نحو الباب ودلائل الخوف والارتعاد باديةٌ على وجوهنَّ . فارتاعت لهذا المشهد وسارت في اثرهنَّ تستطلع الخبر وهي ذاهلةٌ عن حالتها فلم يكن ما يستر جسدها سوى ردآء من النسيج الرقيق اشبه بسحابة صيف تغشى سنى القمر وشعرها الحالك الناعم المنسدل على كتفيها يمثل قتام الطبيعة وعبوسها

ولم تتوسط باحة القصر حتى سمعت الضوضآء في الخارج فأسرعت الى الشرفة التي ابصرت منها اباها مقبلاً منذ امدٍ غير بعيد تخفق فوق رأسهِ رايات النصر

والفوز فرأت جماهير الاعدآء وقد احاطت بالمدينة احاطة السوار بالمعصم فجمد الدم في عروقها وتحلب العرق البارد من جبينها ولبثت جامدة كتمثال من رخام وقد صفا لون وجهها جزعاً فبدت معاني الغمّ والقلق في ملامحها فزادتها جمالاً بل جعلتها تفوق آلهة الجمال رقةً ودلالاً بحيث تجعل الناظر اليها لا يتمالك ان تذوب نفسهُ لوعةً وتأسفاً على تينك العينين السوداوين ان تغشاهما دموع الخوف والحزن. ثم امالت وجهها عن صفوف الاعدآءِ فزحزحت تلك الحركة افاعي شعرها التي كانت تزيد رمح قوامها طولاً فبدا من تحتها عنقٌ هو العاج لولا انهُ اكثر غضاضةً وليناً وقد خطّ الجمال على وجهها « سطرًا ملخصهُ سبحان من خلق » . فنظرت على مسافة قريبة من السور فرقةً من الجند قد انفردت عن المعسكر واقتربت من السور كأنها تتفقد ثغورهُ وتستطلع مداخلهُ وكان بينهم فارس يمتاز عن باقي اصحابهِ بحسن الطلعة وجمال التركيب ولطف الابتسام مع المهابة والجلال فحانت منهُ التفاتة نحو النضيرة فاشتبك النظران وتجردت سيوف اللحاظ فصادفت قلوباً معرّضة لمضاربها فما لبثت ان اسالت منها الدمآء فظهرت آثارها على الوجنات بما اخجل الورد وجعلهُ يتمنى لو يعود الى اكامهِ . واحست الفتاة بالغلبة فاطرقت حيآء ثم نفرت نفور الظبي من امامهِ

وخلفتهُ صريعاً وهي قائلةٌ   تأملوا كيف فعلُ الظبي بالاسدِ

* *

ومن ذلك الحين لم يعد الفارس يفارق ذلك المكان بل كان يتردد اليهِ من وقت الى آخر طمعاً في مشاهدة تلك الفتاة الفتانة . ولما كان اليوم الثاني وقد دنا الوقت الذي ظهرت فيهِ بالامس كان يراقب النافذة من الموقف نفسهِ وقد امتطى اجود الخيل واحاط بهِ الحرس بما لم يبقِ مجالاً للريب في كونهِ الملك فلم يلبث ان رأى ستار النافذة يزاح عنها برشاقة ثم ظهرت ضالتهُ وكانت مرتدية اجمل اللباس ومتحلية بأبهى زينة وكان يظهر من حركاتها وسكناتها ومجمل هيئتها ان فيها عاطفة جديدة من الهيام تجهد في اخفآئها . ثم جعلت تنظر الى هنا وهناك كمن يبحث عن شيءٍ يعهدهُ في تلك الناحية فما لبثت ان رأتهُ وهو على تلك الحال من الشوق

والانتظار فخفق فؤادها وتورّدت وجنتاها غير ان ذلك لم يمنعها من مبادلتهِ الابتسام ثم ذهبت من حيث أتت بعد ان طال وقوفها عن الامس

وهكذا توالت الايام وتعددت المواجهات حتى لم يعد احدهما يطيق صبرًا عن مشاهدة الآخر

وكانت النضيرة اذا ابصرت حبيبها غابت عنها مظاهر العالم اجمع فلا ترى سوى انوار طلعتهِ بازغة على فؤادها الخالي فتملأهُ غبطةً وهناآء ولكنها حين تخلو بنفسها تتغلب عليها مفاعيل الحزن والاسف اذ تذكر ان من تحبهُ هو عدوّ ابيها وغريم مملكتها فترى نفسها في حيرةٍ بين الاخلاص لوالدها أو الخضوع لسلطان الهوى وعلى ذلك حلت الهواجس منها مكان دَعة النفس وخلو البال فأخلدت الى العزلة والتفكير ولم يكن لها من مؤنسٍ غير الدمع ولا من رفيق سوى الزفرات

وبينما كانت يومًا جالسةً في خدرها مسندةً رأسها الى ساعدها الجميل وعيناها شاخصتان وقد ارتسمت عليهما علائم الذهول والغم ورُصّع ورد خديها بلؤلؤتين من الدمع اشبه بندى الصباح وابدى اقحوان ثغرها عن صفين من الدرّ النضيد يقضم بعضهما بعضًا كأنهما يودّان ان يفتديا رقة ذاتها بصلابة ذاتهما اذ دخلت احدى وصائفها واسمها هند وحين رأت سيدتها على تلك الحال وقفت مبهوتة لا تجسر على مخاطبتها ولبثت النضيرة هائمةً في اودية الافكار فلم تنتبه لدخول احد عليها . واخيرًا دنت وصيفتها منها وكلمتها بوقار يمازجهُ الحنان وقالت فدتكِ نفسي يا سيدتي ما لي اراكِ مغمومةً اليوم . فنظرت اليها بعين يكسرها الحزن ثم قالت بصوتٍ تكاد تخنقهُ العبرة اني شقية يا هند . فقالت اواه يا حبيبتي واني للشقآء ان يعترض سبيل صفوكِ وهنآئكِ فاذا كان جزعكِ مسببًا عن حصار هذا الصعلوك ورجالهِ فلكِ من اقتدار والدكِ العظيم ومن حولهُ من اسود الرجال ما يكفل بردهم على اعقابهم بالخيبة والعار . قالت ليس هذا الذي يقلقني يا هند ولا انا في شيء مماتقولينهُ فدعيني وشأني فحزني لا تنفع فيهِ تسلياتكِ ودآئي ليس لهُ من دوآء

فأطرقت الخادمة الى الارض وجعلت تضرب في بيدآء الافكار وقد اخذها من

العجب كل مأخذ ثم رفعت بصرها وقالت لقد كسرتِ قلبي يا سيدتي بما سمعتهُ منكِ هذا اليوم فهل بلغ منكِ الغمّ واليأس هذا المبلغ وانتِ الفتاة التي تحسدكِ بنات عشيرتكِ على ما انتِ فيهِ من العزّ والمجد . فاستحلفكِ باسم والدكِ المحبوب ان تطلعيني على سبب ما يخامركِ من الكرب والاكتئاب فاما ان اسرّي عنكِ او اشاطركِ المصاب . وانتِ تعلمين صدق محبتي لكِ وحفاوتي بكِ وشدة اهتمامي بامركِ منذ كنتِ طفلةً حتى الآن أفلا استحق منكِ حسن الظن بي وائتماني على شيء من اسراركِ . قالت اجل ياهند اني لا ارتاب في صدق ولآئكِ واهتمامكِ بامري فسأطلعكِ على ما انا فيهِ ولعلكِ ترينَ لي رأياً تكون فيهِ راحتي ان كان لمثلي ان يرجو راحةً اوعزآءً . فقالت بل بنفسي افديكِ وسأبذل حتى دمي فيما يخفف عنكِ فلتقل سيدتي . قالت ألم تنظري جيش العدو خارج المدينة . قالت بلى لقد نظرتهُ . قالت وهل رأيتِ الملك . قالت نعم لقدرأيتهُ ايضاً. قالت وكيف وجدتهِ . فقالت على جانبٍ عظيم من الجمال . قالت ذلك وتراجعت قليلاً الى الورآءِ وحدّقت في وجه سيدتها لتلتقط اول بادرةٍ منها . ففاضت دموع النضيرة والقت بنفسها على صدر خادمتها فطوقتها تلك بذراعيها واستولى السكوت ساعةً لم يسمع فيها سوى تنهدات النضيرة والقُبَل التي كانت هند ترسمها على وجنتي سيدتها من وقتٍ الى آخر واخيرًا قالت لها والبكآء يقطع صوتها اني اهوى هذا الملك الجميل ! ! !

***

ودام الحصار مدة اشهرٍ كثيرة لم يجد سابور فيها سبيلاً الى فتح المدينة اوحيلةً في دخولها فقل صبرهُ وكذلك النضيرة خانها الجلد وساورتها الهموم فذبل وردخدّيها و بدت عليها دلائل السقم واصبحت لا ترى لها راحةً ولا سلوةً الا بالموت . وانها لكذلك اذ اقبلت هند يوماً مشرقة الوجه وقالت لها ابشري يا سيدتي فقد هان العسير . قالت وماذا جدّ يا ترى . قالت ان الملك يهواكِ الى حدّ الوله ويبذل كل مرتخص وغال في سبيل الحصول عليكِ . قالت اني اعلم ذلك ولي الف شاهد عليهِ من منظرهِ وحركاتهِ وذلك مما يزيدني حبًّا وشجنًا . قالت وما الذي يحزنكِ بعد ان

تحققتِ ميلهُ وثبت لكِ انهُ يهواكِ كما تهوينهُ . قالت ولكن ذلك لا ينسيني انهُ عدونا وانهُ يستحيل التقرب بيني و بينهُ . قالت هو عدوّ ابيكِ ولكنهُ حبيبكِ . ثم هو لم يجنِ ذنباً يستحق لاجلهِ ان تشاركي اباكِ في معاداتهِ لهُ بل كان ابوكِ هو الجاني عليهِ البادئ بعداوتهِ لغير سببٍ ولا داعٍ فاذا كان سابور يقصد الانتقام منهُ فبحقٍّ يفعل . واعلمي بان لديهِ من العَدَد والعُدَد ما يضمن لهُ الفوز والغلبة على ابيكِ فان انتِ ساعدتهِ على فتح المدينة تغنمين المنزلة الاولى عندهُ وتكونين سبباً في فك الحصار وحقن الدمآء ثم تستطيعين بعد ذلك ان تشفعي لديهِ في حياة كثيرين من ذويكِ واحبائكِ بما لكِ عندهُ من الدالة والكرامة وفوق ذلك كلهِ تكونين عندهُ ملكةً معظمةً بين قومهِ ويكون لكِ المقام الاول بين نسآئهِ

فتفرت النضيرة لدى سماعها حديث خادمتها وقالت لا لا ان الموت اهون لديّ من خيانة ابي و بلادي ولكن ما ينالهُ سينالني فاقصري عن الحديث في هذا الشأن وليعلم سابور ان ابنة الضيزن لا تغترُّ بخداعهِ ومواعيدهِ فليبحث عن الظفر في غير هذا السبيل

فقالت اهذا جوابكِ لهُ . . اذن فانا ذاهبة لأبلغ رسولهُ كلامكِ ولكن تبصّري قليلاً يا سيدتي في الامر واعلمي انكِ بذلك تفقدين الحبيب والوالد والبلاد جميعاً اذ لا بدّ من الظفر لسابور يوماً وانتقامهِ من ابيكِ بعد حصارٍ طويل وقتلهِ شرّ قتلة مع جميع المقرَّبين منهُ ولا يكون نصيبكِ منهُ عند ذلك سوى الذل والامتهان وذهابكِ سبيّةً عوض ان تكوني ملكةً مكرَّمة

قالت ويلاهُ اني لا اقوى على ذلك فانجديني يا هند برأيكِ الصائب واني افعل بما تشيرين . قالت ليس عليكِ سوى الموافقة والاذعان وعليّ التدبير فانا احتال على حرّاس الحصن وافتح الطريق لسابور ورجالهِ فيدخلون المدينة بسلام دون ان تهرق قطرة من الدمآء . قالت لقد رضيتُ بذلك ولكن قبل الشروع في الامر اشترط على سابور ان انا سلمت اليـهِ المدينة ان يجعلني الاولى بين زوجاتهِ واكون المالكة دون سائر نسآئهِ وان يجيب طلبي بالعفو عن حياة كل شخص اطلبها منهُ . قالت

سمعًا وطاعةً يا سيدتي فسأعود اليكِ غدًا بالجواب وليلهمكِ الله ما فيهِ خير ذويكِ وقرب حبيبكِ

ولم تغرب شمس ذلك النهار حتى عادت هند تبشر سيدتها بقبول الملك لاقتراحاتها ومعاهدتهِ لها على انفاذ مطالبها . فسرت النضيرة عندئذٍ و باتت ليلتها يتنازعها عاملا السرور والجزع بين ما تبنيهِ لمستقبلها من دعائم الآمال وما تخشاهُ على أبيها و بلادها من الدمار والو بال

***

اما هند فانها ذهبت واعدّت آنية الشراب واطباق الفاكهة وانتظرت حتى اذا مضى جانبٌ من الليل اخذت معها بعض جواري القصر فحملنَ تلك الآنية والاطباق الى المقاتلة الذين كانوا يبيتون بأعلى السور والحراس الذين كانوا يدورون طول الليل على السور فوزعت عليهم الشراب والفاكهة وقالت هذا من عند مولاتي النضيرة بعثتنا بهِ اليكم جزآء سهركم ونصحكم لابيها الملك وهي توصيكم بادمان السهر وحراسة السور . فشكروا نعمة الاميرة واخذوا في تداول الكؤوس فلعبت الخمرة في رؤوسهم ودبّ دبيبها الى عيونهم فاذبلتها والى اجسادهم فصرعتها . ولما سكروا وناموا كلهم وكان قد تناصف الليل ولم يبقَ احد في المدينة مستيقظًا نزلت والجواري ففتحنَ باب السور وكان سابور وجنودهُ على الباب فدخلوا وانتشروا في المدينة انتشار الجراد فقتلوا من وجدوا في سبيلهم وسلبوا ما وصلت اليهِ ايديهم وكانت ساعةً يشيب لهولها الوليد ثم هجموا على الضيزن في قصرهِ فاخذوهُ اسيرًا في مئة رجلٍ من اشراف قومهِ

وكانت النضيرة تسمع صياح الشعب وولولة النسآء و بكآء الاطفال وفؤادها يقطر دمًا لما جلبتهُ عليهم بخيانتها من الشقآء حتى كاد يغمى عليها . واخيرًا اطلت من باب حجرتها فرأت حرس سابور يخفرها فعادت وجلست على متكإٍ وحاولت البكآء تخفيفًا للوعتها فلم تجد الى ذلك سبيلاً وكان كل شيءٍ من انواع التعزية قد هجرها حتى الدموع تخلفت عنها فلبثت كالتمثال لاتقوى على الحركة وقد اوشكت ان تجنّ

ويُقضى عليها اسًى وندماً

وفي تلك الساعة دخلت هند واخبرت سيدتها ان سابور الملك آتٍ اليها ثم دخل سابور على اثرها فنهضت النضيرة لاستقباله ِ وكانت كآلةٍ تتحرك ولا تعي لولا ان شعرت بخفقان شديد في قلبها فأطرقت ببصرها ولم تقوَ على النطق

فشكر الملك حسن صنيعها معهُ وكرر على سماعها ما وعدها بهِ سابقاً من ان تكون زوجتهُ ومليكة بلادهِ

فشكرتهُ وخرجا معاً يحيط بهما الحرس بعد أن القت النضيرة آخر نظرةٍ على ذلك المكان الذي ترعرعت فيهِ وذاقت من انواع المسرات والنعيم ما لم تحلم بهِ فتاةٌ قبلها . وما زال سائرًا بها حتى ادخلها فسطاطهُ وكان اذ ذاك قد انبلج وجه الصباح فلما استقرَّ بهِ المقام امر بالاسرى فأدخلوا عليهِ وهو على سرير من ذهب والنضيرة الى جانبهِ . وكان اول من دُعي بهِ الضيزن فلما دخل عليهِ رأى بنتهُ الى جانبهِ فقال لها سلَّط الله عليكِ ما سلطتِ علينا ويلكِ هل كنت مقصرًا في تربيتكِ . ثم قال لسابور لا تغترَّ بها فكأني بها قد فعلت بك كما فعلت بي. اما النضيرة فسترت وجهها بيديها حتى لا ترى وجه ابيها وقد انصدع قلبها عند رؤيتهِ في تلك الحال . ولما أُخرج من بين يديهِ أرسل من ضرب عنقهُ ثم أمر بالذين أسروا معهُ فضُربت اعناقهم و بعد ذلك غنم سابور ما في المدينة ثم امر بتقويض سورها وتخريب الحصن وانصرف عائدًا الى مملكتهِ

اما النضيرة فلبثت بعد ذلك اياماً غائبةً عن الوجود لما تناوبها من اعراض الحمى ثم خفت عنها وطأة الاعراض وفتحت عينيها فرأت نفسها محمولة على هودج كبير كثير الزخرفة ومن حولها ثلاث نسآءٍ يعتنين بها . ولما وصلنَ الى مدينة عين التمر وهي المدينة التي كان الملك يقصدها وقف الهودج بهنَّ فأرسلت النسآء النقاب على وجوههنَّ وكذلك فعلنَ للنضيرة ثم رُفعت احدى ستائر الهودج واُنزلت النضيرة فدخلت المدينة وهي مسندةٌ باكف النسآءِ وامامهنَّ وحولهنَّ الجيوش العديدة وكانت المدينة مزينة بابهى زينة وقد خرج كل من كان فيها من الناس لاستقبال

ملكهم المنتصر وسار الملك بينهم باسماً وهو يحييهم فكانوا يقابلون تحيتهُ بالهتاف والدعآء وقد طفحت وجوههم بالمسرات والهناءِ . وما زالوا كذلك الى ان انتهى الملك الى قصرهِ فتربع في سرير مملكتهِ واذن لرجالهِ في الدخول عليهِ فجعلوا يتوافدون افواجاً مهنئين ومسلمين

اما النضيرة فلبثت مدةً اليفة السقام والاحزان تندب اهلها وبلادها وتستغفر ربها عما جرَّتهُ عليهم من البلآء وما ارتكبتهُ فيهم من الاثم الفظيع وما برحت تتمثل لديها آخر نظرةٍ من والدها وهو يعنفها على غدرها وخيانتها وقد زوَّدها تلك الدعوة الرهيبة ثم تتمثل لها حالتهُ تحت يد الجلاَّد وتدفق دمهِ على الارض وكأن كل قطرةٍ منهُ ترشها باللعنات فيغور قلبها حزناً وندماً وتسترسل الى البكآءِ والنحيب حتى تسقط خائرة القوى فاقدة الرشد فلا تصحو الا وتشعر بوخز الضمير الذي كان ينهش قلبها ويستنزف دمعها

ولبثت على تلك الحال من الحزن والغم مدة تزيد عن الشهر وهي لا تقبل عزآءً ولا ترغب في تسلية . غير ان الملك ما فتئ يلاطفها ويبذل جهدهُ في مؤانستها وتفريج كربتها الى ان خف ما بها من لوعة وحزن ومالت الى العزآء والسلوان وقد آنست من الملك حنوًّا وتوددًا انسياها مامرَّ بها من الاحزان . فافترَّ ثغرها وعاد الى محياها زهوهُ واشراقهُ فانجلت عنهُ ظلمات العبوس وبدا مكانها لطف الابتسام واخذت النضيرة منذ ذلك الحين تناجي نفسها بلذة الاوهام وتمني ذاتها بجميل الاحلام

وفي تلك المدة كان الملك قداستراح من وعثاءِ السفر وعاد الى سابق اعمالهِ فنظم مملكتهُ ورتب شؤون رعيتهِ ورفع مراتب المستحقين من رجالهِ واجزل الهبات لسراة قومهِ ولما راقت الاحوال واستتبت الاعمال عين يوماً لاقترانهِ بالنضيرة

وما شاع الخبر حتى تسابق اهل القصر لاقامة الزين الباهرة والحفلات الشائقة وشارك اهل المدينة ملكهم في ارتشاف كؤوس الهنآء بضعة ايام ثم عُقد للملك على النضيرة في حفلة حافلة باشراف المدينة وكبارها

واتفق بعد ذلك ان النضيرة أرِقت في احدى الليالي فباتت تتقلب على فراشها

وهي لا تذوق غمضاً فقال لها الملك ما لي اراكِ قلقةً لا تنامين . قالت ان جنبي يتجافى عن فراشك . قال ولمَ فوالله ما نامت الملوك على ألين منهُ وأوطأ وان حشوهُ لزغب النعام . ثم التمس ما يؤذيها فاذا طاقة آس قد سقطت داخل ثوبها من الازهار التي كانت تزين بها شعرها فتناولها واذا هي قد أدمت جسدها فدهش الملك لما رأى من لين جسدها و بضاضة جلدها وقال لها ويحكِ ما كان فراشكِ عندابيكِ . قالت كان مثل هذا من الحرير الناعم وكان لباسي في الشتآء الخز والوشي المنسوج بالذهب وفي الصيف الكتان المفصص بالجوهر . قال وما كان يطعمكِ ابوكِ . قالت المخ بالسكر الطبرزذ ولحوم الدرّاج والشفانين والصلاصل وكان شرابي مآء الرمان الامليسي. فلما سمع سابور ذلك خافها على نفسهِ وقال هذه لم تنصح لابيها مع احسانهِ هذا اليها وحسن تربيتهِ لها و بلوغهِ من برّها ما وصفت فكيف آمنها ان تفعل بي ما فعلت بابيها ان جفوتها يوماً و بات تلك الليلة وقد عقد عزمهُ على قتلها

ولما كان الصباح دعا سابور رائضاً من روّاضهِ وامرهُ ان يختار اقوى فرسٍ لهُ وان يشدّ ذؤابتها بذنب الفرس ثم يطردهُ وهي معلقة بهِ حتى تتقطع . فلما علمت ما يُفعل بها قالت لعمري لقد استجاب الله دعوة ابي فيّ واني لمستحقة هذا لما كان مني الى ابي العظيم حقهُ عليّ وهذا جزآء غدري بهِ وخيانتي لهُ

ولم يلبث الامر ان شاع في المدينة فاجتمع الى ساحتها خلقٌ لا يحصى لينظروا ذلك المشهد وهم بين آسفٍ لحالها وشامتٍ بما نالها وجلس الملك على شرفة قصرهِ مطلاً على تلك الساحة ولم يمضِ الا قليلٌ حتى جيءَ بالنضيرة موثقة اليدين والى جانبيها اثنان من الجند . وكانت تسير بينهما بخطواتٍ ثابتة دون ان يبدو عليها اقل ارتعاش او جزع بل كانت جملة هيئتها تدل على ان بها ظمأً الى تجرُّع تلك الكأس ورغبةً في التخلص من العذاب الداخلي وما كانت تقاسيهِ من آلام توبيخ الضمير منذ استسلمت لهواها وجرّت على بلادها تلك الويلات ولاسيما في تلك الساعة التي تعاظم فيها يأسها اذ رأت ان الذي جُنّت في حبهِ واقترفت ذلك الاثم العظيم في سبيل ارضائهِ بل الذي رضيت ان تفقد كل شيء لاجل الحصول عليهِ هو الذي يسلمها

الى الموت فلم يبقَ لها بعد ذلك ما ترجوهُ من الحياة بل وجدت انهُ لا راحة لها الا بالموت ولا مكان تخفي فيهِ وجهها الاّ القبر

ولما توسط بها الجنديان تلك الساحة الرهيبة اخذا يحلان شعرها الناعم بايديهما التي خشنها سفك الدمآء فلم تشعر بنعومتهِ ولم تتأثر للطفهِ واقبل الرائض بفرسهِ وهو يثب ويرفس ويضرب الارض بحوافرهِ فوقف الى جانبها ينتظر امر الملك

وحصل في تلك الفترة سكوت عميق وكانت العيون جميعها محدقة في النضيرة . اما هي فضمت اصابع يديها الموثقتين ورفعت بصرها الى السمآء وتحركت شفتاها بصلاةٍ حارة وكأن تلك الصلاة القصيرة التي لفظتها المسكينة كانت رسول التعزية الى قلبها الجريح اذ لم تلبث ان ابتسمت ابتسامة ملكية وطفح وجهها بشرًا كانما هي ترى اباها من اعالي السمآء ينظر اليها باشفاق مكتفيًا بما نالها من العقاب صافحًا عما جنتهُ من الاثم

وكان قلب الملك قد استحال حينئذٍ الى اقسى من الحديد فلم تجد الشفقة اليهِ سبيلاً ولا امكن ذلك الجمال الذي بدا حينئذٍ على ابدع ما يتصورهُ عقل والطف ما يجري في وصفهِ قلم ان يشفع لديهِ في تلك المُحبة المسكينة أو يخفف لها ذنبًا هو حملها عليهِ بخداعهِ وجرَّها اليهِ بتملقهِ وحسن وعودهِ فكأَنما الديان قد اعماهُ وشآء ان يجري العدل في مجراهُ فأنطقهُ بكلمة الحكم الاخيرة وفي اسرع من لمح البصر تناول الرائض شعرها الطويل وربطهُ الى ذنب الفرس . وحينئذٍ اضطربت النضيرة وظهر عليها ارتعاشٌ ذهب بابتسامها واصبح لونها كالاموات ففتحت عينيها وارسلت الى الملك نظرة كان تأثيرها في فؤادهِ اشد من وقع السهام . وللحال خلي سبيل الفرس

اما الملك فشعر ان قلبهُ قد سحق بتلك النظرة وندم على فظاعتهِ وغلاظة كبدهِ فاسرع ورفع يديهِ مشيرًا الى الرائض أن يتوقف ولكن كان قد سبق السيف العذل واصبح ذلك الهيكل البديع التكوين قطعًا منثورةً على الحضيض

واصاب سابور بعد ذلك حزنٌ شديد وندم على ما كان منهُ ولكن بعد الفوات وبلي بغمٍّ مفرط لم يزل مصاحبًا لهُ الى الممات . انتهى